

كيمياء الشهادة

يحق للمراقبين أن يتوقفوا أمام شاهرة الشهداء والشهادة في الساحة الفلسطينية وأن يبحثوا سبل لمطورها وتمجدها وتعميقها.

ويحق لهؤلاء دراسة شاهرة الاستشهاد وتحليلها والسمي لمعرفة مكوناتها النفسية والجسدية، ولتواقع التي أدت إلى إمتلاكها.

دراسات كثيرة صدرت، وأبحاث متعددة أجريت ومقالات كثيرة كتبت. معظمها حاول خصوصاً في السابق تشويه معنى الشهادة والإساءة إلى سورة الشهداء.

بعض هذه الدراسات كانت تصف الشهيد بأنه إرهابي يتعمق في اللعناء، ويعضها يصفه بأنه فقير عاجل عن العمل دفعته ظروفه المادية السيئة إلى التمرد وقتل نفسه وغيره. ويعضها كان يشير إلى الواقع الاجتماعي لطفة وجدت في القتل وسيلة للتعبير عن أزماتها.

لكن ما جرى في المجتمع الفلسطيني وخاصة في السنوات الماضية كان كئيلاً يتكذب كل هذه الروايات المقلقة ويتبجح كل الإشاعات، وينفي كل هذه الأباطيل.

فالشهداء في المجتمع الفلسطيني كانوا من كل الفئات الاجتماعية والتعليمية ومثلوا كل الأعمار. والشهداء كانوا من الرجال والنساء والشباب والفتيات والفتيان وبعضهم أو كثير منهم يحمل شهادة الدكتوراه أو الهندسة أو الطب أو الصحافة أو العلم الشرعي أو السيادة.

والأهم من ذلك أن الشهداء حملوا معهم مشروعاً سياسياً نظيفاً واضحاً بيناً، يدعو إلى طرد الاحتلال وتحرير المجتمع ووقف العدوان وتطوير الحياة العامة. ومثلهم مشي إلى الشهادة واعياً لها ومقتنعاً بأفكارها وبناتجها، ولا كيف فسّر هذا الالتفاف الشعبي الفلسطيني الكبير على الشهيد وأهله، لدرجة بات فيها الشهيد في مرتبة القداسة مما أهل الإعلاميين الغربيين الذين يرون منقار الضرع والانتحال وتوزيع الطوى، عند كل جنازة، تاهيك عن الزملاوي، التي تحول التشييع إلى عرس وطني، ومناسبة للاحتفال، ولا يبالغ إذا قلنا إنها مناسبة للاحتفال.

ما يهم أن نتوقف عنده في هذه السطور أن مسيرة الشهداء في ترويج التماس الوطني الفلسطيني لم تقتنع، فالشهادة حلفت لهبة ومثية ودفعت إلى الانتفاضة وأكدت التمسك بالملق وحمتها من التفريط، وجلبت إجماعاً دولياً لدعم الانتفاضة، وحذرت التنازلين والخرفين، وحسنت المجتمع من الاخران وحركت مشاعر الأمة العربية والإسلامية وجلبت إجماعاً دولياً لدعم الانتفاضة.

مسيرة الشهادة أوجنت أزمة سياسية أمنية وأخلاقية، اجتماعية سهيولية، ودفعت الإسرائيليين للرحيل من غزة، وأسقطت مشروع بقاء الاحتلال على أرض فلسطين ووجهت له ضربات مؤلمة وصعبة.

لولا الشهادة لما نلت القضية الفلسطينية حياة وثنا كنا أحياء، فثمة لمن يرسم بدمه شمس السباح وتحية لكل أولئك الذين استشهدوا، ولكل من ينتظر في مواقع الشرف وتحية لكل من جرح واعتقل وعذب. ■

الغدير